إنعام كجه جي الصحفية و الروائية العراقية ؛ حياتها و آثارها

هلن نعماوي زاده ؛ سهاد جادري ؛ علي سپهيار

المقدمة:

قصدنا من خلال هذه الورقة دراسة فنية لحياة و روايات الصحفية و الروائية العراقية إنعام كجه جي التي نالت على درجة الدكتوراه فى قسم الصحافة من جامعة سوربون و عملت حوالي ٤عقود في مجال الصحافة في فرنسا و تعمل حالياً في جريدة « الشرق الأوسط » و مجلة « كل الأسرة ».

صدر لأنعام كتابان احدهما بالعربية: « السيرة الذاتية للرسامة لورنا هيلز » زوجة النحات و الرسام العراقي جواد سليم ؛ و الثاني بالفرنسية « العراقيات يتحدثن » و هو الدراما العراقية من كتابات العراقيات.

و من اعمالها ايضا فيلم وثائقي قصير عن الطبيبة العراقية نزيهة الديلمة اول امرأة فى العالم العربي تُعيّن فى منصب وزيرة .

لإنعام ثلاث روايات : « سواقي القلوب » و « الحفيدة الامريكية » و « طشاري ». سنتطرق في بحثنا هذا مدى تأثر الروائية إنعام لفنون الروايات و البيئه و المجتمع فى نصوصها الادبيه ،كما نسلط الضوء على دوافعها النفسية و الاجتماعية في خلق آثارها الأدبية .

وجدنا مواضع كثيرة في حياة الروائية لفتت انتباهنا ولكن الامر الذي لفت انتباهنا أكثر من نظرائها هو عدم عصبية إنعام كجه جي حول المذهب الاقليمي و الحس القومي و لكنّها تعد النزعة الدينية محورا رئيسا لشخصيتها الانسانية. فى اللقاءات المتعدده التى قد أُجريت معها عرّفت نفسها دائما بانها صحفية عراقية و لم تشر أبداً الى أصلها الكردي. تدور اعمالها حول ثلاثه مواضيع اساسية: الهوية و المرأة و الحرب التي سوف نعالجها خلال الورقة الكاملة بإذن الله تعالى.

ولادتها ونشأتها

ولدت الصحفية والروائية العراقية السيدة "إنعام كجه جى" في بغداد، عام ١٩٥٢، وزاولت دراستها في العاصمة العراقية وتخرجت من جامعتها، "كلية الآداب" التى اكتسبت فيها خبرتها العملية والمهنية والأدبية. عملت إنعام محررة في الصحافة المحلية واعدّت برامج لإذاعة "صوت الجماهير" و"تلفزيون بغداد إلى باريس". لم تترك مزاولت الدرس حتى حصلت على شهادة الدكتوراه.

وواصلت العمل في المجلات العربية المهاجرة إلى باريس وكانت لها – بالإضافه إلى البحوث والتغطيات الثقافية – أعمدة في كل من "الوطن العربى" و"الحوار" و"الدولية" وتسلمت إدارة تحرير مجلة "الدولية". كما كانت مديرة لتحرير مجلتي "غادة" ثم "الجيل "الصادرتين من باريس.

إنّ إنعام كجه جى حالياً مراسلة باريس لجريدة "الشرق الاوسط" في لندن وكاتبة عمود في مجلة "كل الأسرة" في الشارقة. صدر لإنعام كتابان – مضافا إلى رواياتها الثلاث – أحداهما بالعربية، وهو "السيرة الذاتية للرسامة لورنا هيلز وسنواتها" – بالاشتراك مع "جواد سليم" – والثاني بالفرنسية والإيطالية واليونانية عن الماساة العراقية بأقلام النساء، يحمل عنوان "العراقيات يتحدثن؛ الدراما العراقية في كتابات العراقيات".

نشأت إنعام في عائلة محافظة. كان والدها ضابطا وحقوقيا في الجيش في العهد الملكي، لكنه كان واعيا ومثقفا ويرعى ابنه الوحيد وبناته الأربع – وكما تروي لنا الكاتبة عن إنصاف أبيها – حيث لم يفرق الوالد في المعاملة بيننا. كان والدها خبيرا ومتضلعا في اللغة العربية ولذا نشأت كاتبتنا تحت رعاية إنصاف الوالد، وفي ظلّ حنان اللغة والنحو والشعر العربي. منذ طفولتها عرفت أنها تريد أن تصبح صحفية عندما تكبر – مثل خالها الوحيد الذي كانت له جريدة في البصرة في ثلاثينيات القرن العشرين.

لإنعام كجه جي الكثير من المقالات، عناوينها الساخرة تدلّنا على مدى اهتمامها بالمواضيع المحرجة التي كتب يراعها، وهذه العناوين الساخرة تبيّن لنا تلك المأساة التي عاشتها هذه العراقية

المتنقلة من بلد إلى بلد. من مقالاتها: على نفسها جنت داعش، راكبة الدراجة، متحف بدون حب، عيون الحكومة السود، نجيب محفوظ والبنت البيضاء، جواد سليم يتظاهر في بغداد، أستاذ حشرات ممنوع من العرض، الكهرباء غائبة وأم كلثوم.

أما رواياتها التي سوف نتحدث عنها هي "سواقى القلوب"، و"الحفيدة الأمريكية"، و"طشارى". وقد تم اختيار "الحفيدة الأمريكية" ضمن لائحة الشرف لعام ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ للجائزه العالمية للأعمال الأدبية العربية. كما اختيرت رواية "طشاري" في القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية.

لم تكتف الناشطة الأدبية إنعام بكتابة المقالات والروايات، بل أنجزت أفلاما وثائقية قصيرة منها عن الدكتورة نزيهة الدليمي، أول وزيرة عربية. كما ترجمت أعمالها التي كتبتها بالعربية إلى عدة لغات، منها الفرنسية، والإنجليزية، والفارسية.

تزوجت إنعام كجه جي بالفنان والمتخصص في الإخراج المسرحي "سمير حنا". أما ولدهما فيعمل مبرمجا للموسيقى في إذاعة فرنسا الدولية وبنتهما تعمل في إعداد الأفلام الوثائقية.

أسلوبها

كتبت "انعام كجه جي" الرواية والقصة القصيرة عن تجربتها وخبرتها في الحياه. كتبت عن الهوية - بما لها من نظرة عالمية خاصة حول ظاهرة الهوية والمذهب الإنسانى وأسلوب نظرتها للعالم انترناسيونااليسم. كتبت في مجال الهوية كأزمة اجتماعية ظهرت في المجتمع العراقي بعد الاحتلال الأمريكي الغاشم، فالهوية من منظورها ظاهرة خلقت أزمه في المجتمع الشرقي والإسلامي سبّبت كلّ ردود الفعل التي غرق فيها وطنها العراق، بل العالم.

يتميز أسلوب "إنعام كجه جى" بلغة سهلة ومريحة ومشوقة، وتدور أعمال إنعام كجه جى حول ثلاثه مواضيع أساسيه؛ هي أولاً: الهوية: التي عالجتها في رواية "سواقي القلوب" و"الحفيدة الأمريكية" و"طشاري" وهي في الواقع "أزمه الهوية الوطنية للشرقيين المهاجرين إلى الغرب؛ وثانيا: المراة التي تجلّت أيضا في أعمالها الروائية، ومقالاتها، وأفلامها؛ وثالثا: ظاهرة الحرب ومدى تأثيرها على الضحايا.

جعل السفر بيد إنعام مرآة كبيرة حيث قالت: «يجعلنا السفر أن نرى أنفسنا بمرآة أكبر وبمقياس عالمي أوسع». وقد كتبت الروايات خلال أسفارها؛ "سواقي القلوب" في فرانسا و"الحفيدة الأمريكية" بين فرانسا وأميركا و"طشارى" في فرانسا. فلو كانت "شهرزاد" تسافر في "ألف ليلة وليلة" «بحكاياتها التي اقتبست روحها من الحكايات الهندية والإيرانية، وغرامها من قصص المجون البغدادية، وسندباد وأسفاره من جزر السند (Sonde)، وجزيرة سرنديب التي تحدّث عنها العرب – وقد تكون جزيرة سومطرا، وجزيرة سين (Sin) وهي لا شكّ سيلان» (عباسي. http://anthropology) فكان من نصيب روايات إنعام أن تحلّق في فضاء عوالم ومدن وبلاد أخرى عبر الترجمات.

إذن ما تقدمه هذه المرأة المثقفة في مجال الرواية هو مرتبط بوعيها الفكري والاجتماعي ورغبتها بأن تبدع وتتميز، وفي نفس الوقت، تطرح معاناتها من خلال كتابتها للرواية للتعبير عن الباطن وقد ساعدها في ذلك استفادتها من تقنيات الرواية الحديثه، لأنّ تطوّر الرواية جعل اللغة أكثر حيوية وجمالا وساعد المرأة على طرح ما حلّ بها والبحث في طيّات أعماق نفسها المضطربة بأسلوب جميل ولغة أكثر حيوية ومرونة.

آثارها الروائية:

الرواية الأولى: الحفيدة الأمريكية

بطلة هذه الرواية زينة وهي بنت مسيحية هاجرت مع أسرتها من العراق إلى إمريكا بعد تعذيب والدها صباح بهنام بيد الحكومة البعثية. رجعت إلى موطنها بعد سنوات وهي مترجمة للجيش الإمريكي الذي أرسله بوش لتحرير العراق من سلطة صدام بعد حوادث ١١ سبتمبر. برغم سعيها إخفاءَ تعاملها مع الجيش الإمريكي لكنّ جدّتها رحمة فهمت الموضوع. بما أنّ الجدة امرأة عراقية أصيلة وزوجها عقيد متقاعد من الجيش، قد احتفظت بالأصول والقيم ولم يكن سهلا لها أن تفهم هذا الموضوع، لهذا سعت لإصلاح زينة وتقريبها من جيلها. سعت زينة - وبالاستعانة من ذكريات جدتها الساكنة في بغداد - التقرب إلى وطنها العراق ولكن الهجرة والثقافة الغربية قد أثرت على هويتها وشعرت بتناقض مع هويتها الحقيقية وأخذت تعاني من أزمه الهوية. أما طاووس كانت خادمة الجدة وهي المرأة التي رضعت زينة في زمان مرض أمها، وكان مهيمن بن

طاووس أخا زينة بالرضاعة. أسلم مهيمن وبعد انقضاء إسارته في الحرب العراقية - الإيرانية التحق بالجيش العراقيّ ونوعا ما كان يعارض زينة لأنها محسوبة على الجيش الإمريكيّ.

تأخذنا زينة إلى أرض أجدادها حتى تكشف لنا أوضاع هذا البلد: قصور صدام التي تبدلت إلى معسكرات، وشوارع مملوءة بالرعب والخوف، وعيون تنظر بغضب للمحتلّ و... . ثم تأخذنا إلى إمريكا وهي المكان الذي تعيش فيها أمها وأبوها منفصلين وفيه قبور قتلى الجيش الإمريكيّ.

هذه الرواية استطاعت ببراعة أن تصوّر لنا عالمين متناقضين في العادات والتقاليد. إنّ التوافق بين الغرب والشرق يبدو مستحيلا من الماضي حتى الآن ولهذا السبب، نشهد موت الجدة في نهاية الرواية لأنّها كانت تعاني تعامل زينة مع الجيش الإمريكيّ.

الرواية الثانية: سواقي القلوب

نجحت رواية "سواقي القلوب" في تقديم عوالم متداخلة، وتاريخ شخصي لأسماء عديدة وفضاءات مختلفة، في إطار سردي واحد، ومتن روائي متجانس؛ لما امتازت به من قدرة محاكاة عالية للقبض على الواقع، وإمكانية كبيرة لاستيلاد عوالم جديدة من رحم الخيال المتماهي مع ذلك الواقع، بوصفه صورة متخيلة له. يبنى السرد في هذه الرواية على نسق زمني متقطع، فصول قصيرة يقدّم كلّ منها مشهدا منفصلا، لتكون الفصول الثمانية والثلاثين. ياتي السرد على لسان بطلها، المشارك في السرد. أمضى البطل زهرة حياته مغتربا في باريس، التي يرى فيها المواطن الأرحم والماوى الأكثر أمانا بل «قلب العروبة النابض» (كجه جي. ص: ١٥٢).

توظف الرواية أسماء وشخصيات ووقائع حقيقية، في إطار متخيل، وإضافة إلى ما تمتلكه هذه التحقيقات من رمزية، فإنها تسهم في زيادة منسوب الإيهام بواقعية الحكاية. فكانت "سراب" رمزا للغياب، و"زمزم" الصديق النقي كالنبع في زمن الغربة، و"سوزان" التي تذكّر بعدد كبير من السوزانات، و "ساري" ذلك الفتى العليل في المسلسل التلفزيونى المعروف، و"كاشانية"، تلك المراة الأصيلة التي تتجدد كلما مرّ عليها الزمان مثل ذلك النوع من السجاد الثمين. وقد جعلت المشاعر الإنسانية السليمة بين هولاء فكانوا يلتقون في منزل كاشانية خاتون مثل عائلة واحدة متوادّة، رغم اختلافاتهم العرقية، وأصولهم المناطقية المتباينة، ومعتقداتهم الدينية والسياسية المتعددة.

الرواية الثالثة: محطّة طشاري

لم تخرج الرواية الثالثة لإنعام كجه جي والمعنونة "طشاري" عن إطار العام الذى اتسمت به تجربة الكاتبة، حيث تشاركت مع روايتيها السابقتين في عناصر عديدة، إلا أنها امتازت بتعدد الفضاءات الحكائية ومستويات وتقنيات السرد والأصوات وتباين التجارب والخبرات لشخصياتها. إنها منجز مفعم بالثراء والتنوع. ورغم أنها وقعت في اختبار التفوق على "الحفيدة الامريكية"، إلا أنها لا تقل عنها شانا وأهمية. تبدأ الرواية بصوت الراوي العليم، مع لحظات وصول الدكتورة وردية إسكندر، المسنة العراقية إلى قصر الليزية، لحضور حفل يقام على شرف البابا الذي يزور باريس، وقد دعي له عدد من الاجئين المسيحيين العراقيين. ومن ذاكرة الدكتورة وردية يستلّ الراوي الكثير من أحداث الرواية، ذاكرتها «التي تعاند وتحتفظ بكل شيء وترفض أن تتنازل عن التفاصيل» (كجه جي. ص: ١٢). ولهذا لا يغيب عن وردية أبناءها الذين غادروها كلٌّ إلى مكان: "هندة" في مانيتوبا بكندا، و "ياسمين" في دبي، و"براق" في اليمن ومن ثم في هاييتى، وكذلك أحباؤها الآخرون الذين تفرقوا عنها في مدن أُخرى مترامية. تقيم وردية وحيدة في مبنى للاجئين في إحدى ضواحي باريس، حيث غادرت بغداد بعد ٢٠٠٣ العام الذي أتى للعراق بالعنف الطائفي والفوضى، فانتقل شبح الترويع إلى الشوارع بعد أن كان حبيسا داخل مؤسسات الدولة - بحسب رؤية الرواية. هاجرت الدكتورة بعدما وصلت الأحزمة الناسفة إلى عيادتها، وأوراق التهديد إلى حديقة منزلها البغدادي الذى بقيت فيه وحيدة.

تستخدم الراوية مفردة عراقية تشير إلى التفرق والتوزع غير المنتظم؛ "طشاري" وهو الإسم الذي تعرف به إطلاقات بنادق الصيد التي تنفلق وتنتشر على مساحة كبيرة، لتصيب أكبر عدد ممكن من الطيور أو الحيوانات البرية الصغيرة. وكذلك صورة الساحر الشريرة: «تضرب الساحرة طاردة أهل تلك البلاد إلى أربعة أطراف الدنيا. تبددهم بين الخرائط وهم دائخون لا يفهمون ما يحل بهم» (كجه جي. ص: ١٨). ومن خلال هذه التشبيهات الرمزية أو قنوات التناص التي

تسلكها الرواية سرديا، ترسخ لدى المتلقي جسامة وعمق تأثيرات ذلك الحدث المهول الذي تسعى لتمثيله روائيا، فهو لا يتعلق بفرد أو مجموعة قليلة من الأفراد، بل بشعب كامل لم يعد قادرا على العيش في بلد يأكل أبناءه.

يستعيد الراوي أيام شباب الدكتورة، وعملها مختصة بالأمراض النسائية والولادة، في مدينة الديوانية، الواقعة جنوب بغداد؛ تلك المدينة الأليفة التي بقيت فيها ربع قرن، بعد أن صدر أمر تعيينها فيها حال تخرجها من كلية الطب «ستؤرخ لهذا المكان مسقط لقلبها وسماء لطيفة حنت عليها ومنحتها الكثير من القليل الذي تملك» (كجه جي. ص: ٣١). عاشت هناك أحلى أيامها، تزوجت فيها زميلا لها، انجبت «اربعة أبناء، وتفقد منهم واحدا يترك جمرة في كيانها» (كجه جي. ص: ٣٤).

تصف الرواية أحوال الناس وشئونهم ومشاغلهم، وتعمد إلى تمثيل وقائع التعايش والتسامح والمحبة التي كانت سائدة بين الناس، دون أن يلفت أحد منهم إلى الفوارق الدينية والطبقية، صورة مثالية لم يعد لها مكان في سرديات اليوم. من خلال ذكريات الدكتوره وردية تراجع الرواية مفاصل مهمة تاريخ العراق السياسي، «إنه بلدٌ مدسوس بين فكي الشيطان» (كجه جي. ص: ٣٥).

تأملات في رواية الحفيدة الأمريكية

تستهل الحفيدة حكايتها بالقول :«لو كان الشجن رجلا لما قتلته بل لدعوت له بطول العمر» (كجه جي. ص: ٩). والراوية بذلك تطرح تساولا خفيا: كيف يمكن للمراة أن تستسيغ الشجن الممض؟ وهل ما يدفعها للتودد له والسعي لاستمالته. تتساءل «كيف تمكّن هذا الاحساس المخاتل أن يصقلني ويشذب نزقي». ولكن لم لا تريد معالجته؟ ألأنه أعاد إنجامها مرة أخرى، وعمل على تشكيل ذهنيتها وتفكيرها، غيّر نظرتها للوجود والأشياء والعالم من حولها أم أنّ ثمة ما هو خفي في الأمر؟

لم تكن حياة زينة في ديترويت بأمريكا هانئة تماما، بل كانت تشوبها منغصات كثيرة، من أهمها الحاجة إلى المال، ولذا فإن سبعة وتسعين ألف دولار في السنة، كانت حافزا قويا، ودافعا يهوّن في عينيها المخاطر التي قد تحتملها في العمل مترجمة في العراق، بعد اجتياحه عام ٢٠٠٣ مع جيش بلدها الجديد. هكذا تتشكل الرواية، وتقدم شخصياتها المتخيلة في إطار واقعي، وفضاءات مكانية حقيقية. تربط زينة – وهي السارد الاساسي في الرواية، وبطلتها في الوقت نفسه – بين إعلان الحرب على العراق، وبين حدث ذي مرجعية واقعية أيضا، ترتفع الساردة أحيانا بمنسوب الإيهام بواقعية ما ترويه، فتخبر القارئ إنها شخصية حقيقية، لها حياتها وحكايتها التي لا تدري إن كانت ستعيش لترويها كاملة، فتقول: «هل أعيش لإكمل هذه الحكاية التي لا تخصني، بقدر ما تخصها هي، جدتي، عدوتي، وصورة شيخوختي» (كجه جي. ص: ٣٤).

تعرفت الساردة على مهيمن ابن طاووس، وأخيها بالرضاعة، فكان في نظرها «أول رجل في حياتي يشعرني بالخجل» (كجه جي. ص: ١٣٠) وتنتهي رواية الحفيدة كما بدأت، بعودتها إلى موطنها الجديد، وحصيلتها: «شجن مثل عسل مصفّى، ثقيل ولزج وشفاف يفيد في ليالي الأرق، ويحرض على كتابة الشعر» (كجه جي. ص: ١٩٢) وهناك شخصيات أخرى كالجدة: "جدة زينة"، واسمها رحمة، العجوز المتعلمة، المسيحية موصلية الأصل والولادة، تتمتع بالحكمة ولا تقع في الفخاخ السهلة – كما تصفها الحفيدة؛ والأم؛ وطاووس المراة السمراء الطويلة، الشيعية القادمة من ضواحي بغداد وغيرها من النساء والرجال.

الآثار السلبية للهجرة في الهوية الوطنية

من أسباب أزمة الهوية هجرة الإنسان من وطنه إلى مكان آخر. وطنه الذي يحتضن ثقافة ومعتقدات شعبية مشتركة وقيّمة تبلورت في أنسجة الشعب. إنّ «تنقّل البشر في مواطن جديدة يضعّف علاقته بهويته الأصيلة، وكسب الهوية الجديدة يستغرق وقتا طويلا». (شرفي. ص: ١٣٧)

أحيانا تكون الهجرة جبرية وفي هذا الحال يضطرّ الشخص إلى جلاء الوطن. في هذه الرواية أُجبِرَت زينة على ترك الوطن بسبب تعذيب والدها صباح بهنام بيد رجال الحزب البعثيّ بتهمة تآمره على الحزب والثورة وأجبروه على جلاء وطنه والهجرة إلى دترويت وبعد أن «حطموا أسنانه، قرضوا حافات لسانه وعذبوه بالكهرباء». (كجه جي. ص: ٨٢)

العامل الآخر الذي أثر في هجرتهم من الوطن، تقاعد جد زينة، العقيد يوسف فتوحي من منصبه: «أحالوا جدك على التقاعد بعد ثورة ٥٨ بأشهر قلائل،

لم يكن معارضا ولا من المتآمرين. لكن محاولة انقلابية قامت في الموصل فاعدموا القائمين بها وأبعدوا الضباط القوميين». (كجه جي. ص: ٩٠)

ترجع زينة إلى العراق بعد سنوات بسبب الحرب بين إمريكا والعراق: «سلختني منها الكارثة وأعادتني إليها الكارثة». (كجه جي. ص: ١٣٢)

هاجرت زينة منذ صغرها إلى بلد يختلف عن عاداتها وتقاليدها الأصيلة ولكن في غضون السنوات التي عاشت في دترويت التأمت مع ثقافتها وأسسها. لهذا منذ رجوعها إلى العراق والتعرف على مهيمن (أخيها الرضاعيّ) تفكر في بناء علاقة معه. «كما يقول يوديت استرميتاغ: من أهم التكاليف في المجتمع الغربي هو بناء علاقة مع الجنس المخالف» (قمشه باستاني. ص: ١١١) في حين زينة تعتبر هذا أمرا طبيعيا ولكن مهيمنا الذي يرى سلوكها ناتجا عن تأثرها بالثقافة الغربية يسعى أن يقرّب اعتقادها إلى أسس الوطن. تتأثر زينة منه بسبب حبّها إليه: «حرّك مهيمن تيارات داخلة في روحي». (كجه جي. ص: ١٣٧) زينة مفتونة بشخص يعارضها من جميع الاتجاهات ولكن تراه تكملة لحاجاتها. يعتقد روبرت وينج: «في بعض الحالات يجذب المختلفون بعضهم الآخر، بمعنى أنّ الناس يودّون اختيار أشخاص ذي خصوصيات وحاجات يكملون خصوصياتهم وحاجاتهم». (ارونسون. ص: ٢٥٧)

باعتقاد زينة أنّ الهجرة مثل الأسر. أسر لا يريحك البقاء فيه ولا طريق للرجوع عنه: «الهجرة مثل الأسر، كلاهما يتركك معلقا بين زمنين، فلا البقاء يريحك ولا العودة تؤاتيك». (كجه جي. ص: ١٤٤)

من أسباب المعاناة في أزمة الهوية هي ظاهرة ازدواجية الثقافة التي تحدث في الهجرة. يقول ندوشن: «المقصود من ازدواجية الثقافة هي تعايش الثقافة المسماة بالقديمة في جوار الثقافة المسماة بالجديدة. هذه الثقافات المزدوجة تعيش في وجودنا وكثيرا ما تتعارض مع الثقافات الأخرى ولكن الإنسان يضطرّ إلى التماشيّ معهما. هذه الظاهرة تسبب مشكلة للشباب وتوثر بشكل سلبيّ على عقائدهم الثقافية». (شريف. ص: ٧٥)

حينما راجعت زينة للالتحاق بالجيش الإمريكيّ كمترجمة وجدت هناك عراقيين كثيرين مثلها تركوا بلدهم. كان هناك «عشرات من العرب المتقدّمين للعمل نفسه»، (كجه جي. ص: ٢٥) «عراقيين وعراقيات من مختلف المذاهب والأصول بينهم المهاجر الجديد نسبيا أو المهاجر المعتق». (كجه جي. ص: ٢٦)

بين الهوية الحقيقية والهوية الجديدة

بعد هجرة زينة إلى دترويت وبعد أن قضت نصف حياتها في ذلك البلد، كسبت هوية جديدة، هوية متأثرة من ثقافة الغرب: «ليس في قدرتي سوى أن أكون إمريكية. عراقيتي تخلت عنّي. سقطت من جيبي، وتدحرجت بعيدا مثل فلس منقرض». (كجه جي. ص: ١٧٩) لهذا بعد عودتها للوطن ليست قادرة على تمييز هويتها الحقيقية «أنا مع من؟». (كجه جي. ص: ١٢١)

التذبذب بين ثقافتين، ثقافتنا وثقافة الغرب خلق أزمة لزينة في هذا السفر: «ورغم حماستي للحرب اكتشف أنني أتألم ألما من نوع غريب يصعب تعريفه. هل أنا منافقة إمريكية بوجهين؟ أم عراقية في سبات مؤجل مثل الجواسيس النائمين المزروعين في أرض العدوّ من سنوات؟ لماذا أشعر بالإشفاق على الضحايا؟». (كجه جي. ص: ٢٣)

«أهم مشكلة تسببها هذه الظاهرة هو أن الجيل الشاب ثنائيّ الثقافة لا يفهم ثقافته الوطنية وهو غريب عليها ولا يستطيع أن يستوعب جميع مؤلفات الثقافة الأجنبية. لهذا تبقى الهوية الوطنية لهذا الجيل ظاهرة غامضة ومستعصية». (شريف. ص: ٧٦) «حاولت أن أكون الاثنين فلم أفلح». (كجه جي. ص: ١٧٩) «يعتقد أريكسون أنّ الفرد الذي لا يستطيع أن يجد أسسا إيجابية ثابتة في ثقافته، ومذهبه أو في أيديولوجيته، سوف تتلاشى قيمه. فمثل هذا الفرد يعاني فوضى في هويته فهو لا يستطيع تقييم قيمه ولا يملك قيما يخطط بها للمستقبل». (هورناي. ص: ١٣٤) ويرى بينه وبين الجيل القديم فاصلا كبيرا، يراهم عراقيين أصيليين ويرى نفسه مواطنا إمريكيّا واجبه خدمة ذلك البلد. بلد احتضنه وأسرته: «تأكدت من أنني ذاهبة إلى المهمة التي ستجعلني أستحق المواطنة الإمريكية ... أنها فرصتي لرد الجميل للبلد الذي احتضنني منذ أول الصبا وفتح لي ولأسرتي صدره»، (كجه جي. ص: ٩٣) «جئنا لنقوم بعمل عظيم وهم أفسدوا كل شيء» (كجه جي. ص: ١٧٩)، «أنني ذاهبة في مهمة وطنية. جندية أتقدم لمساعدة حكومتي وشعبي وجيشي، جيشنا الإمريكيّ الذي سيعمل على إسقاط صدام وتحرير شعب ذاق

المرّ». (كجه جي. ص: ١٨) زينة جزء من جيش يسعى لإسقاط صدام وتحرير العراق من الظلم. هي ترى في المشاركة في الخفر ومداهمة بيوت العراقيين والتحقيق معهم جزءا من واجبها المهنيّ: «في الليالي كان عليّ أن أشارك في الدوريات وفي مداهمة البيوت التي نشك بأنها تؤوي إرهابيين». (كجه جي. ص: ٩٨) رغم مشاركتها في هذه المداهمات، فهي تتألم من مشاهدة الأطفال الأبرياء المشرّدين إثر القصف، وقتل العراقيين العُزّل وتدنيس شرفهم وإنسانيتهم: «هناك أطفال يفزعون وأبرياء يموتون بلا ذنب في بغداد». (كجه جي. ص: ٢٣)

زينة تحس بأنها جزء من موطنها العراق وهي ليست غريبة عليه: «لن أموت حيث ولدت وحيث أحببت رجلا مستحيلا»، (كجه جي. ص: ١٩٢) «لست أجنبية»، (كجه جي. ص: ١٣٧) «هذا بلدي». (كجه جي. ص: ٤١)

تشعر زينة في سفرها إلى العراق بهزة عاطفية نفسية وتتشوش في مكان حياتها: «أنا كلب له بيتان لا يأمن لأي منهما»، (كجه جي. ص: ١٦٢) «انشطرت نصفين، ما قبل بغداد وما بعد بغداد. كنت مرتبكة عاطفيا». (كجه جي. ص: ١٦٠)

«الأمور العاطفية لها جذور عميقة في الثقافة والمجتمع والمعرفة الاجتماعية، وثقافة المجتمع تلعب دورا مهما في تكوين هوية الفرد». (شعباني. ص: ٢٥٠)

وبالنهاية هذا التحدي والتضاد خلق أزمة عندها إلى حد فقدان الذات: «إنني فقدت نفسي»، (كجه جي. ص: ١٩٤) «إنسان اليوم يشعر بأزمة الهوية لأن الهوية ليست مجموعة موحدة من القيم الثابتة والمطمئنة». (شايكان. ص: ١٣٤) «الهوية الفردية في تكوينها تتأثر إلى حدّما بالهوية الوطنية. هوية الفرد تتكون من ميزات تنتقل من هويته الوطنية. من جهة أخرى الهوية الفردية تتكون في إطار ميزات جماعية وثقافية متبلورة في هوية وطنية». (شمشيري. ص: ٤١)

من يرى هويته الوطنية في تعارض، يصاب باليأس والعزلة و«أكثر الناس حينما يشعرون بأزمة الهوية يعانون من الغربة، والعزلة والانسلاخ». (شرفي. ص: ٢) «والنتيجة النهائية لأزمة الهوية الهروب من المسؤولية، والابتلاء بالسئم والفتور». (شرفي. ص: ٢١٠) «كيف تكون المشاعر الوطنية؟ خزعبلات لم تكن تعني لي الكثير، لا في طفولتي العراقية ولا في شبابي الإمريكيّ». (كجه جي. ص: ١٩)

فقدان الهوية الجماعية

كثير من العرب وبسبب جهلهم لماضيهم وتاريخ موطنهم لا يشعرون بتعلّق أو انتماء إلى الوطن فيهاجرون إلى بلاد أخرى: «عشرات من العرب المتقدّمين للعمل نفسه ... عراقيين وعراقيات من مختلف المذاهب والأصول». (كجه جي. ص: ٢٥ – ٢٦)

«الانتماء المشترك والالتزام الفرديّ للمجتمع الوطنيّ أو القوميّ يمنح الإنسان هوية جماعية. هذا الانتماء يسبب المشاركة الاجتماعية ولهذا يعتقد ميلر أنّ النشاط من ميزات الهوية لأنه يسبب مشاركة الفرد في المجتمع». (شمشيري. ص: ٥٦.)

«الشعور بالغربة الاجتماعية من المؤشرات التي تدلّ على وجود ضعف في الهوية الوطنية أو فقدانها. كثير من علماء الاجتماع وعلماء النفس يعتبرون الغربة معادلا لأزمة الهوية». (شمشيري. ص: ٥٧)

الشعور بالغربة تجاه الوطن وقيمه ورغبتهم بالثقافة الغربية بصورة تدريجية يسبب أزمة الهوية لديهم. حيدر (أخو مهيمن) برغم أنه عراقيّ ويعيش حياة فقيرة، ملأ جدران غرفته بصور جانيت جاكسون ومادونا وغيرها من الفنانات والفنانين: «أكبر معرض لصور مادونا على الجدران. حتى السقف كان مغطى بالبوسترات». (كجه جي. ص: ٧٨)

يرى مهيمن الوطن مستنقعا يجب الخلاص منه فلهذا يسعى للتخلص منه بمساعدة زينة: «زينة هي الوحيدة التي في إمكانها أن تنتشله من مستنقع الرمال المتحرك الذي يغوص فيه». (كجه جي. ص: ٧٩)

أمثال حيدر كثيرون، يحلمون للوصول إلى إمريكا والدول الغربية، خرّيجات يحلمن في السفر إلى إمريكا للزواج: «خريجات جامعيات لا يجدن عرسانا يحلمن بالهجرة إلى إمريكا للزواج». (كجه جي. ص: ١٢٢ – ١٢٣)

عدم الشعور بالانتماء للوطن والابتعاد عن الهويات الموجودة وعدم كسب هوية مثالية، يسبب التشوش والاضطراب مما يمهّد الطريق إلى معاناة اجتماعية.

تقابل الأجيال

نظرة سريعة للرواية تبين مواجهة الأجيال وتقابلها: جيل قديم (الجدّة) وجيل جديد (زينة). والكاتبة عندما تقارن بين شخصية الجدة وبين زينة ترسم لنا التقابل بين هذين الجيلين: «أنا

مجدلية خاطئة وشابة ترجم بالحجارة، وجدتي عذراء في الثمانين تحبل بلا دنس». (كجه جي. ص: ٣٥) هذه المفاصلة «تجعل منّي الشخصية الشريرة الملعونة، ومن جدتي بطلة طيبة وشجاعة». (كجه جي. ص: ١٣٢)

«عناصر الثقافة ومؤلفاتها تنتقل من الجيل القديم إلى الجيل الجديد. ذكريات الطفولة والمراهقة والمشتركات بين الآباء والأبناء بصورة عامة تمهد الطريق لنقل القيم ومؤلفات الثقافة ولكن الواقع المرّ هو أنّ الجيلين (الوالد والمولود) يبتعدون عن الآخر حتى نشهد المواجهة بينهم». (كجه جي. ص: ١٢٣)

«الابتعاد التدريجيّ للأجيال من الحيث الجغرافيّ، والعاطفيّ، والفكريّ والقيميّ يخلق وضعية جديدة تعرف بتمزق الأجيال». (عليخاني، ص: ١٠٨)

بما أنّ الجهل بالقيم يعتبر أحد الخسائر لأزمة الهوية، فلهذا تسعى الجدة بعرض ذكريات الماضيّ لتقريب زينة إلى جيلها وتصحيح أفكارها التي تعتبرها ناتجة عن تربية غير صحيحة: «ليتهم أخذوك وأحسنوا تربيتك يا بنت بنتي». (كجه جي. ص: ١١٥) «زينة شافت أيام ضيم وضيعت عقلها لازم تساعدني». (كجه جي. ص: ٧٩) «قالت الكلمة الأخيرة بالتركية: تربية سز». (كجه جي. ص: ٧٧)

تعتقد الجدة أن الثقافة الغربية قد أثرت على أفكار زينة وعقائدها وحتى تربيتها وصنعت منها شخصية أخرى: «والسبب في رأيها هو تلك البلاد التي سلبتني أخلاقي ومسختني وجعلت منّي إنسانة أخرى». (كجه جي. ص: ١٣١)

الجيل الماضي ينشد الانطباق الكامل وينكر اختلاف الأجيال وهذا يمكن أن يسبّب التمزق والمفاصلة بين الأجيال. من جهة أخرى إنّ دفاع الجيل القديم المنقطع من قيمه يؤثر سلبيا لأنّه لا يبين القيم بصورة واضحة للطرف المقابل. من الأسباب الأخرى للتمزق، هي ظاهرة عدم التقارب اللغويّ في المستوى المعقول والملفوظ. اذا اختلفت الأمور المهمة بالنسبة للجيلين يظهر عدم التقارب اللغويّ. ومن العوامل الأخرى هو النقص في سعة الصدر وفي تحمّل زلات الجيل الجديدة وخطاياه». (عليخاني، ص: ١٠٢ - ١٠٣)

لهذا حينما تطّلع الجدة على انخراط زينة بالجيش الإمريكيّ تلومها ولا تستطيع التجاهل عن زلتها: «فهمت. لا تكملي. أنت تشتغلين مع الأمريكان». (كجه جي. ص: ٧١)

أم زينة التي تتعلق بالجيل القديم أيضا ملتزمة بالقيم الوطنية. حينما يجتمع المهاجرون ليؤدوا تحليف وفاء الوطن، كي يعتبروا مواطنا إمريكيّا يمتلئ بعده قلب الأم بالحزن والألم لأنها تعتبر نفسها عراقية. «مشت أمي مبتعدة عنا كمن تسير في جنازة وجلست ملمومة على نفسها». (كجه جي. ص: ٢٨)

ظهرت في المنجز الروائي، العراقي الجديد الصادر بعد التغيير، و بشكل لافت، تمثيلات مختلفة لشؤون الهوية وموضوعاتها، كاستبدال الهوية والهجنة والهويات الفرعية والأقليات العراقية والطائفية، كما شهد الإفصاح عن كثير مما كان مسكوتا عنه في ما سبق، إذ لم تكن مسألة أيديولوجية في تغيب الحديث عن قضاياها، لصالح هوية قومية واحدة، وأمل عربي كبير.

النتيجة:

شكلت أزمة الهوية بعداً رئيساً في عدد كبير من النصوص الرواية الحديثة لكونها أي هذه الأزمة –نتاج العلاقة غير المتكافئة مع الغرب التي حالت دون تكون أنظمة ديموقراطية عربية حقيقية وأفضت بالتالي إلى رزوح المواطن العربي تحت وطأة الأنظمة الاستبدادية والعادات والتقاليد الرجعية، لذا لم تقتصر أزمة الهوية هذة على الفلسطينيين العرب الذين فقدوا وطنهم، إنما هي امتدت لتشمل المواطنين العرب من مختلف الجنسيات المهمشين والمنفيين داخل أوطانهم. وبما أن الرواية تضطلع بوظيفة نوعية للإبداع الاجتماعى فقد عبرت بأساليبها الخاصة عن واقعها هذا.

المصادر:

- أحمديان، حميد. (١٣٩٣ش). مناهج النقد الأدبي المعاصر. سمت. اصفهان.
- ارونسون، اليوت. (١٣٨٢ش) روانشناسي اجتماعي. ط ٤، ترجمة: حسين شكركن. رشد. طهران.
- باستاني قمشه، محمّد. (١٣٨٢ش). آشنايان غريب. نشر نكاه معاصر. طهران.
- شايكان، داريوش. (١٣٨٠ش). افسون زدكي جديد: هويت چهل تكّه و تفكر سيّار. ترجمة: فاطمة وليانى. ط ٢. نشر فرزانه. طهران.
- داود، على كاظم. (٢٠١٤م). شعرية الحدث السردي؛ دراسة السرد النسوي. دائرة الثقافة و الإعلام. الشارقة.
- شرفى، محمدرضا. (١٣٨٥ش). جوان و بحران هويت. ط ٤. انتشارات سروش. طهران.
- شعبانى، رضا. (د. ت). ايرانيان و هويت ملّي. ط ١. سازمان انتشارات پژوهشكاه فرهنك و انديشه اسلامى. طهران.
- شمشيري، بابك. (١٣٨٧ش). در آمدى بر هويت ملّى. ط ١. نشر نويد. شيراز.
- عباسي، حسين. (١٣٩٤ش). من ألف ليلة وليلة إلى ألف يوم ويوم. http://anthropology.ir/article/٣٠٦٩٤.
- عليخاني، علي اكبر. (١٣٨٢ش). نكاهى به پديده كسست نسلها. ط ١. نشر پژوهشكده علوم انساني و اجتماع جهاد دانشكاهى. طهران.
- كجه جي، إنعام. (٢٠٠٥م). سواقي القلوب. دار الجديد. بيروت.
- كجه جي، إنعام. (٢٠٠٨م). الحفيدة الأمريكية. ط ٣. دار الجديد. بيروت.
- كجه جي، إنعام. (٢٠١٣م). طشاري. دار الجديد. بيروت.
- هورناى، كارنان. (١٣٦٢ش). تضادهاى دروني ما. ط ٤. ترجمة محمد جعفر مصفّا. انتشارات كتابخانه بهجت. طهران.